

خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ

كلمة الشيخ الدكتور
عبد الرزّاق بن عبد المحسن العبّاد البدر



فرّغها واعتنى بها
سالم الجزائري

بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك لـه، وأشـهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين..

أمَّا بعدُ.. أيُّها الإخوة الكرام وقفة نقفها متأمِّلين في قول ربِّنا عزّ وجلّ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هٰذه الآية المباركة العظيمة أتت كما قال أهل العلم علىٰ جماع الأخلاق وزمام الآداب، ومن وفَّقه الله عزَّ وجلَّ لتدبّر هـٰذه الآية وفهمها والعمل بها وُفِّق لجماع الخُلُق ووُفِّق لزمام الأدب الذي ينبغي أن يكون عليه المُسلم في تعاملاته مع النّاس، ومن زينة شريعتنا -شريعة الإسلام- وجمالها وكمالها أنّها هَدَت العباد إلىٰ الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة والمعاملات العظيمة الكريمة المباركة، وهٰذه الآية آية جامعة؛ بل قال عنها بعض أهل العلم: إنَّها أجمع آية في هـٰذا الباب، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ اشتملت علىٰ ثلاث وصايا أو ركائز في باب الأدب والمعاملة:

الأولىٰ: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ وهـٰذا فيه بيان أنّ أخلاق النَّاس وطبائعهم ليست واحدة؛ بل هم متفاوتون: منهم الهَادي السَّمح المتَّزن الخلوق الرَّفيق اللَّطيف اللَّيِّن، ومنهم الشَّديد الغليظ العنيف، ومنهم الواقع في الأمور

المصادمة للأخلاق تمام المصادمة، فهم ليسوا علىٰ درجة واحدة.

ومطلوب من المسلم أن يهيِّئ نفسه في ملاقاته للناس ومقابلته لهم واحتكاكه بهم للتَّعامل مع أصناف وأجناس وأخلاق متباينات، فمن يعاملهم ليسوا علىٰ مستوىٰ واحد؛ بل بينهم تفاوت، ولهـٰذا جاء هـٰذا التَّوجيه المبارك: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي ما سمحت به أخلاق النَّاس وأحوالهم وطبائعهم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ولا تنتظر المثالية في الأخلاق من كل من تلقَّاه وكلّ من تتعامل معه؛ بل النَّاس فيهم في هـٰذا الباب تفاوت عظيم، فإذا هيَّأت نفسك هـٰذه التَّهيئة أن تأخذ بالعفو وما سمحت به أخلاق النَّاس وتيسَّر لهم القيام به سعدت في هـٰذه الحياة، أما إذا كنت تنتظر من كلِّ من تلقاه أن يكون مثاليًا في أخلاقه وفي تعاملاته لن تجد ذلك؛ لأن النَّاس طبائع وأجناس؛ منهم سريع الغضب، منهم سريع الانفعال، منهم الهادي، منهم الرَّزين، منهم العنيف، منهم الغليظ.. إلىٰ آخره، فهيِّئ نفسك لملاقاة هـٰذه الأنواع والأصناف المتباينة من الأخلاق، وخذ ما سمحت به نفوس الناس منها.

الثانية: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أيضا عندما تأخذ بما سمحت به أخلاق النّاس أيضا كن داعيًا رفيقًا ناصحا موجها بالرفق واللين واللطف إلىٰ كل فضيلة وإلىٰ كل خير، خذ العفو وفي الوقت نفسه مُرْ بالعرف؛ أي بالمعروف من كلِّ قول

طيِّب فاضل وفعل كريم نبيل، ويكون التَّوجيه رفيقًا من قلب ناصح حريص علىٰ دلالة النَّاس وهدايتهم إلىٰ الخير، فيلقىٰ النَّاس بالصَّبر علىٰ أخلاقهم وفي الوقت نفسه يحسن التوجيه للنَّاس؛ لأنَّ من لا يصبر علىٰ أخلاق الناس ليس مؤهَّلا لدعوتهم، فالدّعوة تحتاج إلىٰ صبر علىٰ أخلاق النّاس المتفاوتة المتباينة ولهٰذا قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ فيتلقّىٰ أخلاقَ النَّاس باللِّين واللُّطف والمُسامحة وغضِّ الطَّرف عن تقصيرهم، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ في الوقت نفسه تكون موجِّها.

الشَّخص الغليظ -علىٰ سبيل المثال- إذا وفَّقه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لشخص يصبر قليلا علىٰ غلظته وفي الوقت نفسه يُحسن توجيهه ودلالته برفق ولين، بمثل هٰذا الصَّبر والدَّعوة تأتي الثِّمار بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمَّا إذا كان إنسانًا لا يتحمَّل ولا يصبر ولا يُحسن التَّلطُّف بالآخرين والرِّفق بهم وحُسن توجيههم ودلالتهم كما قدَّمت ليس مؤهَّلا لدَعوتهم، قد قال الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لنبيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩].

الثَّالث: قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وهٰذا أيضًا مطلب عظيم في باب الأخلاق وجوامع الآداب؛ أن تُعرض عن الجاهل، بمعنىٰ أن لا تقف عند عباراته الجاهلة وألفاظه النّابية، وكلماته السَّيِّئة ومعاملاته الفضّة الغليظة، لا تقف عند هٰذه التَّعاملات، ولا تُلقي لها بالًا؛ بل أعرض عن جهل الجاهلين، وروِّض نفسك علىٰ ذلك.

أمَّا إذا وقف الإنسان مع جهالة الجهال ورُعوناتهم وسوء تصرّفاتهم فإنه يتعب في هٰذه الحياة ويعاني معاناة شديدة، إن لم يتحوَّل أيضًا إلىٰ جاهل مثلهم فيجهل عليهم بمثل جهلهم عليه:

ألا لا يجهلنّ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

ربّما يتحوَّل إلىٰ ملاقاته بجهل أشدّ من جهله عليه، ولهٰذا الطَّريقة المثلىٰ أن يُعرض الإنسان عن الجاهل،

ولقد أمُرُّ علىٰ اللَّئيم يسبُّني فمضيت ثمت وأقول لا يعنيني

فالإعراض عن الجاهلين وعدم الوقوف عند جهلهم وكلماتهم السَّيِّئة وألفاظهم النَّابية هو الذي يُريح الإنسان من معاناةٍ في هٰذه الحياة، وإلَّا إذا مضيت في ملاقاة النَّاس وتعاملهم ستجد من يسيء لك التَّعامل، من يرفع عليك الصَّوت، من يغلظ، فإن كنت تريد أن تقف مع كل متعامل من هٰؤلاء، وتُصغي إلىٰ ما يقوله وترهق نفسك بمتابعة أقواله قال كذا وقال كذا وتنبري للمجابهة فهٰذا يرهقك ويؤلم قلبك وربَّما يجلب لك في نفسك الهمّ والغمّ، بينما إذا أعرضت عن الجاهل وقلت في نفسك: هٰذا مبتلىٰ بالجهل مبتلىٰ بكذا، وأنا عافاني الله من ذلك، وتحمد الله أن عافاك من مثل هٰذه المُعاملات وتمضي في حياتك، بمثل ذلك تسعد، وفي الوقت نفسه تساعد الجاهل علىٰ مراجعة نفسه، إذا أعرضت عن ألفاظه وسوء تصرفاته تساعده علىٰ مراجعة نفسه، ولهٰذا كم من الجاهلين بمثل هٰذه المعاملة تراجعوا، ولو أنّ من عاملهم جابهم لتفاقم الأمر ولعظم الخطب، وقد كان من هدي نبيِّنا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إذا خرج من بيته يقول : «**اللّٰهم إنِّي أعوذ بك أن أَضل أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أَجهل أو يُجهل عليّ**» وهٰذه الدَّعوات العظيمة المباركة التي كان يدعو بها -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مناسبة لحال كلِّ من خرج من بيته ويحتاج إليها كل من خرج من بيته لأنه سيواجه أجناسًا من المتعاملين وأصنافًا من الأخلاق وأنواعًا من التَّعاملات، فيحتاج إلىٰ حسن التجاء إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بأن يُعيذه من أن يَضل أو يُضل أو يَزل أو يُزل أو يَظلم أو يُظلم أو يَجهل أو يُجهل عليه، فيستعيذ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- من ذلك كلِّه ويمضي هو في تعاملاته مع النَّاس في مثل هٰذه التَّوجيهات المباركة العظيمة في هٰذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات والأحاديث التي تدعو إلىٰ كوامل الآداب وجوامع الأخلاق.

اللّٰهمَّ اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنها سيِّئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

والله أعلم وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.